أقواس

عن الحدود

كانت عيوننا ونحن في الطريق المؤدية إلى القدس عبر وادي الأردن تنشدّ بيقظة مثيرة إلى ذلك السياج الحديدي المزدوج ، والذي يفسح المجال بين شقيه لسيارات حرس الحدود الإسرائيلي أن تتجول بحرية وبحذر في آنٍ واحد كي تحرس «الحدود».

كان النظر يشرد بعيداً «وراء الحدود» ليقع على بيوت متناثرة، وربما بعض السيارات المتحركة، فنهمس في آذان بعضنا البعض : «تلك بيوتٌ أردنية وسيارات أردنية».

تلك كانت لقاءاتي الأولى مع «الحدود»، فحتى ذلك الحين لم أكن قد غادرت البلاد . وكنت أعرف تفاصيل العالم جيداً من خلال الأطالس التي كنت مدمناً على التفرس فيها . وكانت معظم الأطالس السياسية تميّز كل دولة بلون منفرد . وكان كل شيء وراء الحدود غامضاً ومجهولاً بكل تفاصيله.

في المرات الأولى التي مررت بها بمحاذاة «الحدود» كنت أصاب بخيبة أمل لأن كل شيء يبدو طبيعياً أكثر من اللزوم : ذات المشهد ,ذات المناظر الجبلية، وذات وادي الأردن . ولم يبدُ الأردن الجاثم وراء الحدود كدولة «بلون» آخر كما كانت يبدو في الخرائط ، وبدا المكان مشابهاً «للهُنا»...

وكنت في هذه المناسبات مسكوناً بالقبض على الحدود وتملكها ، والتمعن تماماً في الحد الفاصل الذي يحوّل المكان إلى آخر فأتساءل :تُرى ,هل السياج الحديدي القريب مني هو الحدود، أم الآخر من الناحية المقابلة؟ أم أن الحدود هي تلك المسافة الممتدة بين السياجين الحديديين بصفتها منطقة محايدة؟!

كانت الإمكانية الثالثة هي أكثر الإمكانيات قرباً لنفسي لسبب بسيط، هو كونها الوحيدة التي تمكنني من القبض على الحدود وتشخيصها كحالة مادية قابلة للإدراك . كان ذلك يعيد لها بعض المكانة التي تلائم الحيّز الذي أشغلته في ذهني . أما أن تكون الحدود بين الدولة مجرد سياج حديدي، تماماً كالسياج الذي يفصل أرضنا عن أرض الجيران ، ففي ذلك إهانة لفكرة الدولة ولأهمية الأطالس ، وخذلان لتصوري للحدود ولما بعدها.

كانت تلك أول «خيبة أمل» لي بالحدود..

آخـــــر الليـــــل

من منا لم يشعر بالنشوة أيام صباه ، حين أصبح صاحب حق تجاه أهله بأن يشاركهم السهر حتى ساعات الليل المتأخرة . وكانت النشوة تأخذ مداها الحقيقي في هذا السهر المتأخر، خاصة إذا كان برفقة الأصدقاء.

كان السهر حتى الصباح قضية شبه مبدئية، تثبت لنا أننا أصبحنا قادرين على شيء وسنتمكّن منه : السهر. مرات عديدة شكّل السهر حتى الصباح حالة تحدٍّ معنوي، أردنا أن نثبت لأنفسنا من

خلاله أمراً ما ,لا أدري ما هو ,وكأننا في حالة منافسة مع الطبيعة ومع الأهل.

وكان دائماً يسكنني هذا الترقّب المتوجّس .تتفتح الحواس تماماً في محاولة متكررة وفاشلة لاستيعاب اللحظة الحاسمة في قدوم الصباح .متى يحضر الصباح تماماً؟ متى ينتهي الليل؟

في كل مرة كنت أشعر بأني سهوت عن أمر ما قد فاتني، وأني لو انتبهت أكثر لاستطعت القبض على تلك اللحظة اللعينة المخادعة التي تأتيك على مهلٍ,دون ضجيجٍ أو إنذار, لتخطف منك الليل وتزرع حولك نور النهار.

يفاجئك الفجر دائماً، ويأتيك في كل مرة لأول مرة، وكأنك لست على موعد معه، وكأن الليل لا آخر له. يباغتك بسهولته المخادعة، وينسل من بين عينيك المحدقتين، وأنت تبحث عبثاً عن خيط سحري وهمي يصل الليل بالنهار.

ليل ونهار وجهان لشكل الوقت، يفصل بينهما الوقت، فكيف نقبض عليه؟!

ثيـــاب

١ ـ ثياب . ثياب قديمة . ثياب جديدة . ثياب ضرورية . ثياب جميلة . ثياب دافئة . ثياب باردة. ثياب بالية . ثياب للتبرع.

٢ ـ خزانة للثياب . غسالة للثياب .مكوىً للثياب .صابون للثياب .دكان للثياب .خياط للثياب. قماش للثياب .خيطان للثياب .أزرار للثياب .قطن ـ صوف ـ نايلون ـ حرير ـ كشمير ـ جوخ.

٣ ـ ثياب للعرس . ثياب للعروس . ثياب للعريس . ثياب للعمّاد . ثياب للكاهن . ثياب للعمل . ثياب للمحامي . ثياب للطبيب . ثياب للممرضة .ثياب للشرطي . ثياب لساعي البريد . ثياب للجندي. ثياب رجال الإطفاء . ثياب رجال الأمن . ثياب مضيفات الطيران . ثياب عمّال الكراجات . ثياب الزانيات.

٤ ـ ثياب قصيرة . ثياب طويلة . ثياب للرجال . ثياب للنساء . ثياب مغرية . جوارب طويلة. حاملات النهود . أحزمة . ثياب داخلية . قبعات . شالات . قفازات . ثياب تُخفي . ثياب تفضح .ثياب تشير . ثياب تتواضع . ثياب تثير . ربطات عنق.

٥ ـ عند الولادة . عند الطبيب . في الحمام . في المسبح . بعد الموت.

٦ ـ كلاوديا شيفر . ماركس أند سبنسر . باريس . كيلفن كلاين . روبنسن كروزو . دانيل هيتشر. إيف سان لوران . آدم وحواء . مادونا . سهير رمزي . جان فالجان . ألان ديلون .

أقمشة وألوان تتحرك خلال الليل والنهار، نتواجد فيها أحياناً.

المـطـــارات

منطقة الخيال المحصنة الأكيدة.

دائماً محاطة بالمجهول، المجهول الدائم . تتوسط بين المألوف العادي وبين الآتي المألوف.

إلاّ أن الآتي يخرج من مجهوله ليفضح أوراقه بسرعة ,ليصبح شبيهاً بالماضي، وليخرج من منطقة الإبهام المفعمة بالترقب . قدر المكان الآتي أن يكون مجهولاً الآن وأن يكون مكشوفاً غداً . أن يخرج من غموضه عارياً تماماً، ليتحول ويكون جزءاً من الماضي المألوف.

هي المطارات وحدها ، تبقى لحظة المجهول، لأن سرها خارجها . حالة وسطية تماماً . تصل المألوف الماضي بالغامض الآتي وتبقى هي دائماً عصيّة على القبض . شرفة تطلّ على الوقت.

حين نسافر نبحث عن زمان آخر وحظ آخر . شعور مفعم بالحرية، بالتغلب على قوى الجاذبية المغناطيسية الأرضية، وعلى قوى الجذب الاجتماعية . إلا أنه وبالأساس محاولة للقبض على الوقت.

أن تسافر وأن تكون هناك، معناه أن تكون في مكانين في آنٍ واحد .عند السفر أنت لا تكفّ عن أن تكون هنا، فأنت لا تختفي عن مألوفك اليومي العادي : الأسرة، مكان العمل، الشارع، الحزب، الأصدقاء .ساعي البريد يواظب على إسقاط الرسائل في صندوقك البريدي ، وشقتك تحمل اسمك، ويهتف الأصدقاء إليك ليكتشفوا أنك مسافر، وزوجتك تشتري لك أثناء غيابك بعض الأشرطة الموسيقية، وتقتني أثناء وجودها في السوبرماركت علبة القهوة المفضلة لديك . بهذا المعنى أنت لا تفقد وقتك هنا حين تسافر.

أن تكون هناك، في السفر، يعني أن تضيف بعض الوقت إلى وقتك . تحايل جميل على العمر .إذا كنا لا نملك القدرة أن نضيف إليه بعض الأيام أو الشهور أو السنين مباشرة، فلماذا لا نستعير مكاناً آخر ,ونقايضه ببعض الوقت؟ فإذا كان طول عمرنا محتوماً ومحكوماً، فلماذا لا نحاول أن نتلاعب بعرضه أحياناً، والمكان ببعض تجلياته هو عرض الحياة؟

لنفترض أن الفيزياء مخطئة، وأنك تستطيع أن تنتقل بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وأنّ بمقدورك التواجد في مكانين في ذات الوقت تماماً. لنتخيل جدلاً أن ذلك حاصلٌ . بوسعك عندها أن تكون في حيفا وفي روما في آنٍ واحد ! أن تكون مقاتلاً وعاشقاً في آنٍ واحد ! أن تعرف الصحراء وأن تعيش مع الأسكيمو في ذات الوقت ! أن تكون هنا سائق تاكسي، وتكون هناك أديباً..

وإذا كان الأمر كذلك، فما الفارق عندها بين أن تعيش عمرين في مكان، وتعيش عمراً واحداً في مكانين؟!

المطارات .. المطارات .. شرفةٌ تطلّ على الوقت . مكانٌ بين زمانين، دائم الإبهام، ومدخلٌ للتحايل على العمر.

الشـــــاشـــة

والشاشات أنواعٌ : هنالك شاشة السينما وشاشة التلفزيون . والسينما بفارق عن التلفزيون، نقصدها لنراها . نخرج من بيوتنا خصيصاً لنرتاد دار السينما . لا نرى الشاشة إلا أثناء العرض حين تحضر عليها الصور .نعرف الشاشة بصفتها صوراً.

أما التلفزيون فهو جاثم في بيوتنا . جزءٌ من حياتنا اليومية . قطعة أثاث عادية من معدن وبلاستيك، ومسطح أسود زجاجي وأملس ندعوه بالشاشة .

في الحالتين تتوسط الشاشة بين المشاهد والصور ,بين الذات والموضوع . وإن شئتم تتوسط الشاشة كحاجز مادي بين الواقع والفانتازيا، بين المعقول واللامعقول، وكأنه يرسم بينهما حدوداً.

إلا أن التلفزيون والسينما بما يحويانه من فانتازيا يقيمان في الواقع ويشكلان جزءاً منه . يقيمان فيه وينفصلان عنه . مصنع من الأحلام والأوهام، عمّاله بشرٌ من لحم ودم، ومستهلكو منتجاته بشر كذلك.

مؤخراً عرض التلفزيون حلقات أسبوعية عن نشاط دوريات الشرطة " الحقيقية "في لوس أنجلوس، كما التقطته عدسات المصورين الذين يرافقون رجال الشرطة في" غاراتهم "، ويوثقون لنا بطولاتهم ومغامراتهم.والفكرة واضحة :نقل صورة حية ومباشرة لما يجري هناك في الخارج، دون تدخل لأصابع المخرج، لتتضح بذلك صحة ما قاله " غوته " قبل حوالي مئة سنة من أن الواقع يتجاوز الخيال أحيانًا، وليس أفضل من تمثيل الواقع سوى الواقع نفسه ! ها هو الواقع يتبارى مع الفانتازيا ليهزمها في عقر دارها : في التلفزيون.

مؤخراً بدأت أراقب من خلال عملي كمحامٍ تصرفات بعض رجال الشرطة، وأخذت أتساءل : أي مشهد من المشاهد اليومية يصلح لهذا العرضِ التلفزيوني؟ وأي فرد من أفراد الشرطة « الحقيقيين» أمامي يصلح لأن يكون « ممثلاً» في برنامج حول عمل الشرطة كماً يعرضه علينا التلفزيون ؟

لم تكن النتائج مفاجئة .. فكثيرون ممن راقبتهم صلحوا لهذا الدور أو ذاك !تصرفوا وكأن كاميرا خفية التقطت تحركاتهم، لفتاتهم، نبرة صوتهم، وإشارات أيديهم القاطعة والرجولية حتماً . كانوا « يمثّلون» دوراً . يحلمون بالدخول إلى عدسة الكاميرا، ويتصرفون وكأنهم بداخلها، وكأنهم في غرفة اختبار سينمائي.

وبدأت أنتبه أن ذلك ليس حكراً على أفراد الشرطة فحسب، إنما يتعداهم إلى بعضٍ من زملائي في المهنة .. محاولة لتقمّص أدوار «محامو لوس أنجلوس»!

هذا هو إذاً .يصل الواقع ذروته في تقمص الفانتازيا في محاولة للتمثيل، كي يصبح تلفزيونياً. والتلفزيون كخيال، يصل ذروته ضمن محاولته لأن يكون « واقعياً» .والواقع يجنح نحو التمثيل، والتمثيل يجنح نحو الواقع، والشاشات بينهما، وكأنها تصنع لهما حدوداً!

بين ٩٤٠ و٤٣١

سكنت القدس عدة سنوات أثناء دراستي الجامعية وبعدها، وكان ذلك لقائي الأول مع المدينة.

كانت القدس بعيدة . مسافة سفر بضع ساعات عن الجليل، وكانت تبدو لي من بلدتي جزيرةً بعيدة . الطريق المؤدية إلى القدس عبر الشاطئ الملتف يساراً عند «هرتسليا» حتى «طلوع » القدس لم تعن شيئاً لي . هذا المكان ليس لي، لا ينتظرني ولا يفتح ذراعيه في استقبالي .أراه ولا أراه.

في بُعد المدينة عن الساحل وانقطاعها المكاني عن مشاهد الطفولة الريفية التقاءُ واجتماعُ فجوات ثلاث : فجوة الجيل عن الأهل، فجوة القرية والمدينة، وفجوة المكان الغريب الذي يفصل بين الفضاءين. لم تكن القدس استمراراً للمكان الذي قبلها، فقد كان السفر إليها بالنسبة لي كالإبحار إلى جزيرة منشودة ستشهد تفتّح شبابي الأول، ووعيي السياسي الأول ..

في القدس، مدينة الحدود الواضحة، كنا نحن الطلاب العرب في الجامعة العبرية المبنية على« الحدود» تماماً، نقوم أسبوعياً إن لم يكن يومياً بطقوسنا الاعتيادية بزيارة أسواق القدس العربية والتسكع بباب العامود .كان ذلك مصحوباً دائماً بمشهد أفراد حرس الحدود الإسرائيلي ببدلاتهم العسكرية وخوذاتهم وهراواتهم، وهم ينكلون بالمارة وبالنسوة لابسات الثوب الفلسطيني المطرز- بائعات النعناع في باب العامود .مشهد تتخلله صيحات صلفة ومكسَّرة اللكنة تطلب بإلحاح إبراز البطاقات البرتقالية والزرقاء .مشهد احتلالي واضح ومقيت.

إلا أن القدس بأسواقها الجميلة وحركتها غير المنقطعة وسائحاتها متعددات الجنسيات ومطاعمها وصحفها ومسرحها، كانت المدينة الأولى التي نعيشها ونتعرف عليها ,وتولد أحلامنا على راحتيها. وكانت تغوينا دائماً بالولوج إليها والتعلق برائحتها لنكون جزءاً منها، بعد أن أصبحت جزءاً منا.

لكنّ مدينتي الأولى كانت محتلة!

لقائي بمدينتي الأولى كان لقائي أيضاً بالاحتلال.

لا شيء في «قدسهم» الغربية يذكّر بالاحتلال . لا شرطة ولا حواجز . مدينة شبه أوروبية، لكنها تبقى مدينتهم . ليس بالضرورة لأسباب عنصرية . لا حاجة للعنصرية حتى تكون غريباً عن مدينة ليست لك.

بعد سنوات في القدس كان لا بد من «الرجوع» . وبدأ مشوار البحث عن المدينة . لم يكن سوى حيفا، باعتبارها الوحيدة التي تملك بعض هوامش لمدينة لي.

كان الباص الذي ينقلني من القدس إلى حيفا يسير بخط مباشر بين المدينتين. خط ٩٤٠. يمر بالقرب من تل أبيب ليصل مباشرة إلى حيفا دون وقفات على الطريق.

بعد أن قررت الانتقال إلى حيفا بدأت السفرات في الباص بين المدينتين تتخذ معنًى جديداً، والمسافات الشاسعة الممتدة بين المكانين بدت لي بصورة مختلفة وتحمل دلالات جديدة.

كان السؤال الذي يلحّ عليّ دائماً، لماذا لا أستطيع أن أجد مكانيً في هذا المدى الممتد بين القدس وحيفا؟ ألا يوجد ما يكفي من مكان بين المكانين لكي أترجّل فيه من سفري، وأبني بيتاً وأمارس فيه حياة المدينة -مدينتي؟ تُرى هل هناك «مؤامرة » تقضي بأن يسير الباص بدون توقف بين القدس وحيفا ليحرمني من كل ما بينهما؟

بَيْد أن لبّ الموضوع هو في كون القدس قد أعطت معنًى جديداً لكل المسافة الممتدة بينها وبين حيفا. لقد أصبح كل ما بينهما يعنيني . بما أني أنتمي إلى المكانين تماماً، فكل ما بينهما يعنيني . واغترابي، أو قل اغترابه عني حالة نشاز . لقد جعلَتْ القدس المكانين مكاناً واحداً . القدس وحيفا نقطتان حوّلتا ما بينهما إلى خط متواصل.

عندها استوعبت « حجم الخسارة»..

في حيفا أنت لا تُرغم على إبراز بطاقة هويتك . لا مشاهد تثبت الاحتلال .في حيفا مشاهد أخرى تذكّر بمدينة أخرى كانت هنا.

الباص الذي ينقلني من حيفا إلى بلدتي يحمل الرقم ٤٣١. خطٌ يوصل بين حيفا وطبريا. وبعكس زميله خط ٩٤١، فهو خطٌ كسول، متأنٍ، يعبث كثيراً على الطريق، ولا تمرّ بضع دقائق حتى يتوقف لحمل بعض الركّاب وإنزال آخرين.

وبعكس زميله أيضاً الذي يقطع البلاد طولاً وعرضاً، فهو، أي خط ٤٣١ يقطعها عرضاً فقط,ليصل المسافر بين المتوسط وبحيرة طبريا مروراً بمدينة الناصرة . خطٌ سياحي إلى حدٍّ ما.

على طول الطريق قرىً عربية ومستوطنات يهودية . ركّاب الباص عربٌ ويهود . عددٌ كبير من الجنود الذاهبين إلى مواقع وحداتهم قرب الجولان، وعمال عرب عائدون من يوم عملهم الطويل في حيفا.

خط ٤٣١ يرسم حدود الجليل باتجاه الجنوب، لكنه لا يرسم حدود الجليل من الجنوب . يمتد الجليل شمالاً حتى حدود لبنان، لكنه محاصرٌ من الغرب والشرق ببحرٍ وبحيرة.

منذ عشر سنوات أدمنت خط ٤٣١ , لأكتشف أنه مجالنا الحيوي الوحيد. 260

رائف زريق
الناصرة